مصادر التزكية عند ابن قيم الجوزية

سامر خليفة مفلح بني عامر[i]
د. أحمد ضياء الدين حسن الحسين[ii]

تاريخ الاستلام
2022/7/26
تاريخ القبول
2022/10/9

الملخص

هدفت الدراسة إلى بيان مصادر التزكية عند ابن قيم الجوزية، وذلك من خلال بيان المصادر الأصيلة والتبعية للتزكية عند ابن قيم الجوزية، واتبع الباحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وتوصل الى أن المصادر الأصيلة للتزكية عند ابن قيم الجوزية هي القرآن الكريم والسنة النبوية، وأنها المعيارية في انتقاء مصادر التزكية التبعية، وأن التراث الإسلامي مليء بمنهج التزكية الذي يحتاج إلى الجهد لاستخراجه وتنقيحه وتهذيبه. ويوصي الباحث بإجراء المزيد من الدراسات حول مراجع التزكية الصحيحة؛ ليستفيد طلبة العلم منها، وغربلة كتب التراث من الشوائب التي طالت منهج التزكية، والاستفادة من وسائل الإعلام في نشر مراجع التزكية التي على منهج الكتاب والسنة وما وافقهما، وكتابة رسالة علمية جامعة لمصادر التزكية في التربية الإسلامية عموماً.

الكلمات المفتاحية: التزكية، التربية الإسلامية.

[i] جامعة اليرموك
[ii] جامعة اليرموك

Sources of Purification According to Ibn Qayyim Al-Jawziyya

Abstract

The aim of the study was to indicate the sources of recommendation at ibn Qayyat al-Jawziya, through the statement of the original sources and dependency of the recommendation at the son of the values of Al-Jawziya, and the researcher followed the inductive approach, and concluded that the original sources of recommendation are the Holy Quran and the Prophet's Sunnah and that they The standard in the selection of sources of acclamation dependency and that the Islamic heritage is full of the approach of recommendation that needs effort to extract, revise and refine it, and the researcher recommends further studies on the correct references of recommendation, so that students of science benefit from them, and sift heritage books One of the flaws that affected the approach of recommendation, and the use of the media in publishing the references of the recommendation that are on the curriculum of the Book and the Sunnah and what they agreed, and writing an umbrella scientific letter for sources of recommendation in Islamic education in general.

Keywords: Purification, Islamic education.

المقدمة:

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من بُعِثَ مُعَلِّمَاً للنَّاسِ وهادياً وبشيراً، وذَاعياً إلى اللهِ بإذنه وسِرَاجاً مُنِيراً؛ فأخرجَ النَّاس من ظُلمات الجَهْل والغوَايَة، إلى نورِ العلم والهِدَايَة وبعد:

فالعلم الشرعي من أفضل العلوم وأجلها وأرفعها مقاما عند الله سبحانه وتعالى؛ فهي تخرج العبد من ظلمات الجهل إلى نور العلم والهداية، وبه ينتظم المجتمع ويسير على الطريق المستقيم، فإذا أخذت الأمة الإسلامية بالعلم حققت سعادة الدارين وفازت برضوان الله، وهذه الغاية العظمى من العلم الشرعي، والمطلب الأسمى لطالبه.

إن مراتب الدين متنوعة، فتحقيق التوحيد يأتي في المرتبة الأولى وهو تعزيز الإيمان، ثم مرحلة الشعائر التعبدية وهو الإسلام وهي تحتاج لتعزيز عملي، والمرحلة الثالثة وهي الإحسان وهي مرتبة قلبية تحتاج للعناية المستمرة للرقي بها، وهذا مستوحى من حديث جبريل الطويل[iii]، الذي يؤسس لهذه القواعد التزكوية، فهذه المراتب الثلاث تحتاج لتعزيز وتقويم من فترة لأخرى، بالاعتماد على المصادر الإسلامية الأصيلة منها والتبعية، بعكس الفلسفات التي تكون أصوليا مشوبة بالمغالطات والتخبط، وتُرقي المنتسبين إليها باستخدام الوسائل المضطربة، وهي إما أن تكون ديانة سماوية قديمة قد حرفت، أو دينًا وضعيًّا، أو فلسفة وضعية، أو لا دينية، فالثمرة المرجوة من هذا الاتباع متذبذبة قابلة للانهيار في أي وقت، أما الاعتماد على التصور الإسلامي ذي المصادر الأصيلة في التعديل البشري للوصول إلى الكمال الجزئي، له ثمرته المرجوة أصوليا وفرعيا، فجاءت هذه الدراسة؛ لتبين للقارئ مصادر علم التزكية في التربية الإسلامية التي يعتمد عليها في الرقي النفسي الإنساني ظاهرا وبطانا.

مشكلة الدراسة:

إن دخول الكثير من الفلسفات الوضعية في مناهج التربية الإسلامية، أثرت سلبا في مسألة المصدرية التي تعتمد التزكية عليها، وتعدد المذاهب التي وجهت الخطاب الجماهيري لموضوع التزكية، فأصبح انفصام جلي بين لب التزكية وأصولية القرآن والسنة والتراث الإسلامي، وتتمثل مشكلة الدراسة في محاولة الإجابة عن السؤال الآتي:

ما مصادر التزكية عند ابن القيم؟

ومن هذا السؤال تتفرع الأسئلة الآتية:

1. ما المصادر الأصيلة للتزكية عند ابن قيم الجوزية؟
2. ما المصادر التبعية للتزكية عند ابن قيم الجوزية؟

[iii] صحيح البخاري، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، ج، ص19، ح ر 50.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. بيان المصادر الأصيلة للتزكية عند ابن قيم الجوزية.
2. بيان المصادر التبعية للتزكية عند ابن قيم الجوزية.

أهمية الدراسة:

تتمثل اهمية الدراسة بما يأتي:

1. إثراء المكتبات التربوية الإسلامية خاصة ببحوث ودراسات في هذا الإطار، والتي يمكن أن تستخدم لأي دراسات مستقبلية.
2. إفادة العاملين بمجال تطوير التعليم، والتربويين، وطلبة العلم الشرعي بشكل عام وطلبة قسم الدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك، ومخططي المناهج في تطوير النظام التربوي ككل.

الدراسات السابقة: بعد الاطلاع الموسع في المحركات البحثية، ومكتبة جامعة اليرموك، والمواقع الإلكترونية، من قبل الباحث لم يتم العثور على دراسة سابقة لموضوع الدراسة ولا في مضمونه.

منهجية الدراسة:

اتبع الباحث في هذا الدراسة المنهج العلمي المتمثل في:

المنهج الاستقرائي: يتمثل ذلك بالرجوع الى كتب التزكية، وتصنيفها، وجمع النصوص المتعلقة بموضوع الدراسة.

المنهج الاستنباطي: وذلك بتتبع النصوص المتعلقة بموضوع الدراسة، ثم استنباط الدلالات المتعلقة بها.

مصطلحات الدراسة:

المصدر: أصل ينشأ عنه غيره، ومن هنا جاء وصف ما تنبثق عنه المعرفة وتتولد منه بالمصادر؛ لأنها هي الأصل، والمعرفة ناشئة عنها.[iv]

التربية الإسلامية: منظومة المفاهيم النظرية والتطبيقات العملية، المبنية على أصول الإسلام، في تعليم وتزكية إصلاح الأمة المسلمة أفردا وجماعات، وبشكل مستمر ومتكامل، وبكل الوسائل المشروعة، بقصد تحقيق العبودية لله تعالى في الدنيا، والفوز برضوانه في الآخرة.[v]

التزكية: هي الجهد التربوي المنظم الذي يعمل على تطهير الشخصية المسلمة باطناً وظاهراً وتنميتها واستقامة حالها، وفق منهجية الوحي[vi].

[iv] هزايمة، موسى محمود، مصادر المعرفة التي اعتمدتها المدارس الفكرية وانعكاسها على أصول التربية في المجتمع الإنسان، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، ص 21.

[v] خطاطبة، عدنان، أصول التربية الإسلامية وتطبيقاتها، ص 40-41.

المبحث الأول: المصادر الأصيلة للتزكية عند ابن قيم الجوزية

عندما نتكلم عن المصادر، نتكلم عن مخازن معرفية، تمثل مرجعيات للشخص المراد دراسته، وهي تكون أسس يعتمد عليها في بناء منظومته العلمية الشرعية، سواء أكانت أصولية كتخصص التفسير أو الفقه، أم دراسات تربوية، وهذه الجوانب كثيرا ما جمع ابن القيم بينها، لسعة اطلاعه المعرفية، وهو ما يسمى بالشخصية الموسوعية.

المصدر لغة:

جاءت كلمة المصادر في اللغة مشتقة من الجذر الثلاثي صدر، قال ابن فارس: صدر: الصَّدْر: أَعلى مقدَّم كُلِّ شَيْءٍ وأَوَّله، حَتَّى إنهم لَيَقُولُونَ: صَدْر النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وصَدْر الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَمَا أَشبه ذَلِكَ مُذَكَّرًا[vii]، وفي القاموس المحيط: الصَّدْرُ: أَعْلَى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ وأولُه، وكلُّ ما واجَهَكَ[viii]، وفي المعجم المحيط: (صدر)، الْأَمر صَدرا وصدورا وَقع وتقرر وَالشَّيْء عَن غَيره نَشأ وَيُقَال فلَان يصدر عَن كَذَا أَي يستمد مِنْهُ وَعَن الْمَكَان والورد صَدرا وصدرا رَجَعَ وَانْصَرف وَإِلَى الْمَكَان انْتهى إِلَيْهِ وَفُلَانًا رجعه وَصَرفه وَأَصَاب صَدره[ix].

والصَّدْرُ: أَعْلَى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ وأولُه، وكلُّ ما واجَهَكَ، ومن السَّهْمِ: ما جازَ من وَسَطِهِ إلى مُسْتَدَقِّه، لأَنه المتقدِّمُ إذا رُمِي، وحَذْفُ أَلِفِ فاعِلُنْ في العَرُوضِ، والطائِفةُ من الشيءِ، والرُّجوعُ، كالمَصْدَرِ، يَصْدُرُ ويَصْدِرُ، والاسمُ: بالتحريك، ومنه طَوافُ الصَّدَرِ، وقد صَدَرَ غيرَه وأَصْدَرَه وصَدَّرَه فَصَدَرَ. وصَدْرُ الإنسانِ، مُذَكَّرٌ، والصُّدْرَةُ، بالضم: الصَّدْرُ، أو ما أَشْرَفَ من أَعْلاهُ، وتَصَدَّرَ: نَصَبَ صَدْرَهُ في الجُلوسِ، وجَلَسَ في صَدْرِ المجلسِ، وصُدُورُ الوادِي: أَعالِيهِ ومقَادِمُهُ[x].

خرج من هذه المفاهيم أمور:

- أن المصدر مقدمة الأشياء؛ نقول مصدر السيارة، أي الشركة المصنعة لها.
- أن المصدر أول الشيء؛ نقول مصدر النقود هو البنك الرئيس "المركزي".
- أن المصدر مكان النشأة؛ نقول الدولة الفلانية صدرت السلعة، أي هي مكان نشأتها.

المصدر اصطلاحا:

[vi] خطاطبة، عدنان، النظرية التربوية الإسلامية، ص 556.

[vii] ابن منظور، لسان العرب، ج4، 445.

[viii] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص 423.

[ix] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، 509.

[x] الفيروز أبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، ص 423.

"المصدر في عرف جمهور المعاصرين هو الكتاب الذي تتخذه أصلاً لتأليفك، أو تنقل شيئاً منه إلى مقالتك أو بحثك أو كتابك، أو ترجع إليه في بحثك، وهو والمرجع سواء؛ وهذان اصطلاحان محدَثان"[xi].

ويعرف **المصدر:** أصل ينشأ عنه غيره، ومن هنا جاء وصف ما تنبثق عنه المعرفة وتتولد منه بالمصادر؛ لأنها هي الأصل، والمعرفة ناشئة عنها. [xii]

ولذلك فهي محاضن أو مضان تعتمدها الشخصية العلمية في إنتاج المعرفة الموجهة للمتلقي، بمستوياتها المختلفة.

ومما سبق يتبين أن مصادر التزكية عند ابن قيم الجوزية، هي ما رجع أليه في تقريره لمسائل التزكية في مجموع مؤلفاته، وما اعتمد عليه منها، سواء أكانت أصيلة، أم تبعية، ومدى رجوعه إليها في إنتاجه الفكري.

يعنى هذا المبحث بيان المصادر الأصيلة التي اعتمدها ابن القيم -رحمه الله- في مؤلفاته بشكل عام، وما يختص بالتزكية بشكل خاص، والتي سبق بيانها بأنها المحاضن أو المضان التي كانت المرجعية لفكر ابن القيم.

مصدر الوحي:

ويعنى هنا بالوحي، القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، وهن بمثابة الأساس الموجه لفكر ابن القيم في جميع ما كتب في مراحل حياته المختلفة في التزكية وغيرها من المواضيع.

القرآن الكريم هو المصدر الرئيس الذي يُستنبط منه القواعد التربوية التي تسير عليها الأمة الإسلامية، علاوة على السنة النبوية، ومنذ نزوله لم يكن القرآن الكريم آيات تتلى، ولكن لكل آية تطبيق فعلي لقيمة أو خلق، وهذا التطبيق كان يمر بفترات إلقاء نظري، ثم تدريب عملي، بدأ بالعهد النبوي، ثم بعهد الخلفاء الراشدين، ثم بالتابعين، فكان أساس التعليم القرآن الكريم منذ الصغر، وبعد حفظه وفهمه يُنطلق بالطالب إلى بقية العلوم، فسعى الأئمة إلى تفسير كتاب الله وبناء الأجيال على التدبر والفهم.

افتتح ابن القيم أحد مؤلفاته العظام وهو مدراج السالكين بفصل سماه هداية القرآن، والمتأمل في ذلك يجد أن ابن القيم قد جعل من القرآن الكريم الأساس الذي لا يستطيع العبد العيش إلا به، ولا الانتماء إلا إليه، يقول: " وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَمِيلُ بِهِ الْآرَاءُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَالنُّزُلُ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تُقْلِعُ سَحَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي آيَاتُهُ، وَلَا تَخْتَلِفُ دِلَالَاتُهُ، كُلَّمَا ازْدَادَتِ الْبَصَائِرُ فِيهِ تَأَمُّلًا وَتَفْكِيرًا، زَادَهَا هِدَايَةً

[xi] خلف سلامة، محمد، لسان المحدثين، ج5، ص 119.

[xii] هزايمة، موسى محمود، مصادر المعرفة التي اعتمدتها المدارس الفكرية وانعكاسها على أصول التربية في المجتمع الإنسان، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، ص 21.

وَتَبْصِيرًا"[xiii]، فتأمل تأمل البليغ كيف هاج ابن القيم في وصف القرآن الكريم، فجعله بذلك رأس المصادر التي يرجع إليها القاصي والداني، والتي لا يستغني عنها عالم ولا أمّي.
ولهذا كانت نظرة ابن القيم للتلاوة مغايرة نوعا ما فيقول: "فحقيقة التِّلَاوَة هِيَ التِّلَاوَة الْمُطلقَة التَّامَّة وَهِي تِلَاوَة اللَّفْظ وَالْمعْنَى"[xiv]، والمقصود من اللفظ والمعنى هي الاتباع واقتفاء الأثر، والتصديق الجازم.
لم يصنف ابن القيم -رحمه الله- تصنيفا مستقلا في علم التفسير، بل جاء ذلك مبسوطا في مجموع مؤلفاته، وقد استُقصيت في دراسات اعتنت بجمع ما أمكن من تفسير ابن القيم للقرآن الكريم.
ومن اعتناء ابن قيم الجوزية بالقرآن الكريم، ألف مصنفا خاصا في التفسير أشبه ما يكون بالتحليلي، سماه التبيان في أقسام القرآن، وهو أخص من التفسير القيم الذي جمعته الدراسات في مصنف واحد، ومن الأمثلة الواردة فيه: "وأقسم على صفة الإنسان بقوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 1-6] وأقسم على عاقبته وهو قسم على الجزاء في قوله ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]"[xv].
من خلال العرض السابق لاهتمام ابن قيم الجوزية في القرآن الكريم، نورد بعض الركائز المتعلقة بفقه هذا الإمام:
أولا: أن القرآن الكريم هو النجاة، وهو الحياة بالنسبة للإنسان، وهو الصراط الموصل لرضا الله- سبحانه وتعالى- في الدنيا، والآخرة.
ثانيا: تقريب المعاني للأذهان من خلال وضوح العبارة في تفسير آيات الكتاب الحكيم.
ثالثا: قرب ابن القيم الجوزية من الواقع وفهمه له، بحيث ترابطت الآيات مع الواقع في تفسيره.
رابعا: اعتماده على قواعد التفسير من تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، وتتبعه لأقال أئمة التفسير المجتهدين.
خامسا: كان ابن القيم يفسر الآيات تفسيرا تحليليا بيانيا.
سادسا: كان يجمل في تفسير بعض الآيات أحيانا، ويخصص في مواضع أخرى.
سابعا: يعتبر تفسير ابن القيم للقرآن الكريم تفسيرا موضوعيا، وذلك باستيعاب الموضوع وإبرازه.
ثامنا: ومن دقة تفسيره أنه كان مهتما بالبلاغة، أي النظر إلى اللفظ ودوره في المعاني.
تاسعا: إيراده للإعجاز العلمي في تفسيره لبعض الآيات، ومن ذلك آية ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.
عاشرا: الحس التزكوي في تفسيره لآيات القرآن الكريم.

[xiii] الجوزية، ابن قيم، مدارج السالكين، ج1، ص 27.

[xiv] الجوزية، ابن قيم، مفتاح دار السعادة، ج1، ص 42.

[xv] الجوزية، ابن قيم، التبيان في أقسام القرآن، ص8.

السنة النبوية:

فمنذ البعثة النبوية الشريفة بدأت أنوار الوحي تبث العلم وتسعى في بناء الأجيال التي تسقلت بهذا العلم، فكان منهج النبي -صلى الله عليه وسلم- منهجاً قرآنياً، كما وصفته عائشة-رضي الله عنها-: "كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن [xvi]، وهذا المنهج طبق على الصحابة في البناء وتعديل الأخطاء صغاراً أو كباراً.

"فالتربية بأروع صورها وأتم أساليبها، وأكمل أساليبها، عند نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فلا أتم من تربيته ولا أكمل من هديه، ولا أحسن من أسلوبه، وطريقته، وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق معالجتها، هو أعظم أسلوب من الأساليب التربوية النبوية، والإنسان بحاجة إلى من يعيده إلى فطرته السليمة؛ ليصلح لعمارة الأرض، وليقوى على حمل أمانة الحياة، والقيام بها ويجتنب المحرمات، ويبتعد عنها"[xvii].

تطرق ابن قيم الجوزية لمصدرية السنة النبوية بالبيان والتوضيح، فاتخذها مصدرًا في جل كلامه بعد كتاب الله عز وجل، وألف فيها المؤلفات لخدمتها، وذب عنها طوال حياته حتى فارق الدنيا، وله من الأقوال الكثيرة في هذا الشأن، يقول: "فَعُلِمَ أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين كله وحي من عند الله، وكل وحي من عند الله فهو ذكر أنزله الله، وقد قال الله تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء: 113]، فالكتاب: القرآن، والحكمة: السنة"[xviii].

ومن عناية ابن القيم في السنة النبوية أنه ألف فيها مؤلفات، منها على سبيل المثال: كتاب تهذيب سنن أبي داوود، "وهذا كتاب غزير الفوائد عظيم المقاصد، ففي علم الحديث نرى فيه كلامه عن الرجال، وكذلك التخريج والحكم عليه وما يتصل بالعلل، وهذا الكتاب فيه خدة للسنة النبوية، ومن ذلك الجمع بين بعض الأحاديث ودفع التعارض عنها"[xix].

ومن ذلك أيضا كتاب أسماه بالْمَنَارُ الْمُنِيفُ في الصَّحِيح والضَّعِيفِ، "ويشتمل هذا الكتاب على إجابة ابن القَيِّم -رحمه الله- على ثلاثة أسئلة سُئل عنها، وقد قام ابن القَيِّم - رحمه الله - بالجواب عن هذا السؤال بمسائله الأربع، فبين حال هذه الأحاديث، مع ذكر جملة من الفوائد المتعلقة بها، وبخاصة: الكلام على تفاضل الأعمال وتفاوت درجاتها، وتفاوت قبولها تبعاً لذلك"[xx].

ومن المنهج النبوي المتبع عند ابن القيم، أخرج من أعماق مؤلفاته منهجا تزكويا، فيقول: "فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو

[xvi] صحيح مسلم، باب جامع صلاة الليل، ج1، ص513.

[xvii] المنهج النبوي في علاج الأقوال المذمومة، قاسم، محمد سنحان، رسالة ماجستير، ص 11.

[xviii] الجوزية، ابن قيم، مختصر الصواعق المرسلة، ج2، 371.

[xix] الجوزية، ابن قيم، تهذيب سنن أبي داوود، ج1، ص 10. بتصرف بسيط.

[xx] السيد، جمال، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، ص ج1، 301.

كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم". [xxi] ولذلك كانت مصدرية السنة النبوية معتبرة عند ابن القيم -رحمه الله-، في جميع مجالاتها، وكانت بحر من الاستنباط التزكوي بالنسبة له، فانتفع بها، ونفع بها خلق كثير، علميا وعمليا، وانتفع بهذا المنهج العالم وطالب العلم ومن دونهم.

المبحث الثاني: المصادر التبعية للتزكية عند ابن القيم

يعنى هنا بالمصادر الثانوية، أي التي تكون تبع للمصادر الشرعية، وأُخرت هذه المصادر لأفضلية المصادر الشرعية عليها، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة لا يقدم عليها عقل أو حس أو تجربة أو إلهام، والمصادر الشرعية التبعية تبع للأصيلة، والعقل له أن يستوعبها ويدركها ويجتهد في فهما قدر المستطاع، وهنا سيقوم الباحث باستعراض المصادر الثانوية التي تكلم فيها ابن القيم -رحمه الله- من عقل وحدس وإلهام.

العقل:

ورد العقل في اللغة في عدة معاني فمثلا يقول ابن فارس: "(عقل) العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمُه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. ومن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل"[xxii]، وفي لسان العرب: "عقل: العَقْلُ: الحِجْر والنُّهى ضِدُّ الحُمْق، وَالْجَمْعُ عُقولٌ"[xxiii]، وقد عرفه الأصفهاني فقال: "العَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ"[xxiv].

وأما في الاصطلاح عرّف على أنه: "ملكة يتأتى بها درك المعلومات"[xxv]، وسئل ابن تيمية عن العقل فأجاب: "العقل" في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضا أو صفة ليس هو عينًا قائمة بنفسها سواء سمي جوهرًا أو جسمًا أو غير ذلك"[xxvi].

[xxi] ابن القيم، مدارج السالكين(2/35) .

[xxii] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص ٦٩.

[xxiii] ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص 458.

[xxiv] الراغب، الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 577.

[xxv] السبكي، تاج الدين، الأشباه والنظائر، ج2، ص 17.

[xxvi] ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، مجموع الفتاوى، ج9، ص271.

اعتنى ابن القيم رحمه الله تعالى بالعقل، فمن خلال استقراء كلامه، يتبين أنه كان معتبرا بالنسبة له كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي، فقال في معرض إجابته عن مسألة تتعلق بالروح: "وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة"[xxvii]، وقد فسر القرآن الكريم وهذا يحتاج لجهد عقلي، واعتنى بالسنة النبوية والتي تحتاج للفهم، وعندما تكلم عن القياس قال: "فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ وَنَظَرَ إِلَى أَقْرَبِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَقْضِيَةِ أَصْحَابِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي سَوَّغَهُ الصَّحَابَةُ وَاسْتَعْمَلُوهُ، وَأَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ"[xxviii]، ومعلوم أن هذا الاجتهاد يحتاج أيضا لجهد عقلي منظم.

ولهذا وضع ابن القيم -رحمه الله- العقل في موضعه الذي يليق به، فلم يقدمه على نصوص الوحي، كما فعلت بعض التيارات من تقديم العقل على النص الصحيح، وكثيرا ما كان يكرر عبارة العقل الصحيح لا يخالف النص الصحيح، فقال: "فَالْمَقْصُودُ الصَّرِيحُ هُوَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، فَإِذَا أَبْطَلَهُ بِالتَّأْوِيلِ فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ صَحِيحٌ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى خَصْمِهِ كَمَا لَمْ يَبْقَ مَعَهُ مَنْقُولٌ صَرِيحٌ، فَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ الْمَنْقُولَ لِلتَّأْوِيلِ، وَالْمَعْقُولُ الصَّرِيحُ خَرَجَ عَنْهُ بِالَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ مَعْقُولٌ."[xxix].

ولهذا فقد عد ابن القيم أن العقل يصدق ما جاء به الوحي أكثر من المحسوسات، فقال: "وَهُوَ أَنَّكَ إِذَا جَعَلْتَ الْعَقْلَ مِيزَانًا، وَوَضَعْتَ فِي إِحْدَى كِفَّتَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ الْمُشَاهَدَةِ الْمَحْسُوسَةِ الَّتِي يَنَالُهَا الْعَيَانُ، وَوَضَعْتَ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى الْأُمُورَ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَدْتَ تَرْجِيحَهُ لِهَذِهِ الْكِفَّةِ فَوْقَ تَرْجِيحِهِ لِلَّتِي قَبْلَهَا وَتَصْدِيقَهُ بِهَا أَقْوَى، وَلَوْلَا الْحِسُّ وَالْمُشَاهَدَةُ يَمْنَعُهُ مِنْ إِنْكَارِ ذَلِكَ لَأَنْكَرَهُ"[xxx].

الحدس

الحدس لغة: "إِدْرَاك الشَّيْء إدراكا مباشرا والفراسة يُقَال قَالَه بالحدس"[xxxi]، وفي لسان العرب: "الحَدْسُ التَّوَهُّمُ فِي مَعَانِي الْكَلَامِ والأُمور؛ بَلَغَنِي عَنْ فُلَانٍ أَمر وأَنا أَحْدُسُ فِيهِ أَي أَقول بِالظَّنِّ وَالتَّوَهُّمِ"[xxxii]، "وأَصلُ الحَدْسِ الرَّمْيُ، وَمِنْهُ حَدْسُ الظَّنِّ إِنما هُوَ رَجْمٌ بِالْغَيْبِ. والحَدْسُ: الظَّنُّ

[xxvii] الجوزية، ابن قيم، الروح، ص 179.

[xxviii] الجوزية، ابن قيم، إعلام الوقعين عن رب العالمين، ج1، 67.

[xxix] الجوزية، ابن قيم، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص 95.

[xxx] الجوزية، ابن قيم، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص 146.

[xxxi] المعجم الوسيط، ج1، ص 161.

[xxxii] ابن منظور، لسان العرب، ج 6، ص 46.

وَالتَّخْمِينُ. يُقَالُ: هُوَ يَحْدِس، بِالْكَسْرِ، أَي يَقُولُ شَيْئًا برأيه. أَبو زَيْدٍ: تَحَدَّسْتُ عَنِ الأَخبار تَحَدُّساً وتَنَدَّسْتُ عَنْهَا تَنَدُّساً وتَوَجَّسْت إِذا كُنْتَ تُرِيغُ أَخبار النَّاسِ لِتَعْلَمَهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ"[xxxiii].

اصطلاحا: "الإدراك السريع المفاجئ لموقف أو حقيقة، دون حاجة إلى حس خارجي، أو استدلال عقلي"[xxxiv].

يلاحظ من خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي للحدس، أنه عبارة عن خواطر تأتي للذهن دون استعمال العقل فيها، أو رؤية الأشياء بنظرة الظن والتخمين ثم الحكم عليها بهذه النظرة.

ويشير الباحث إلى أن الحدس هو معنى مرادف للفراسة، ومصطلح الفراسة هو أغلب استعمال علماء السلف، بعكس الحدس مصطلح مستحدث.

الحدس عند ابن القيم (الفراسة).

عرف ابن القيم الفراسة في كتابه القيم مدراج السالكين، نقلا عن صاحب المنازل[xxxv] فقال: "الْفِرَاسَةُ: اسْتِئْنَاسُ حُكْمِ غَيْبٍ وَالِاسْتِئْنَاسُ: اسْتِفْعَالٌ مَنْ آنَسْتَ كَذَا، إِذَا رَأَيْتَهُ. فَإِنْ أَدْرَكْتَ بِهَذَا الِاسْتِئْنَاسِ حُكْمَ غَيْبٍ: كَانَ فِرَاسَةً. وَإِنْ كَانَ بِالْعَيْنِ: كَانَ رُؤْيَةً. وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِهَا مِنَ الْمَدَارِكِ: فَبِحَسَبِهَا"[xxxvi]. وقد علق ابن القيم على هذا التعريف فقال: "قَوْلُهُ: مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلَالٍ بِشَاهِدِهِ؛ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ: أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ. وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، كَالِاسْتِدْلَالِ بِالْبُرُوقِ وَالرُّعُودِ عَلَى الْأَمْطَارِ، وَكَاسْتِدْلَالِ رُؤَسَاءِ الْبَحْرِ بِالْكَدَرِ الَّذِي يَبْدُو لَهُمْ فِي جَانِبِ الْأُفُقِ عَلَى رِيحٍ عَاصِفٍ. وَنَحْوِ ذَلِكَ. وقال: "فَهَذَا خَارِجٌ عَنِ الْفِرَاسَةِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِيهَا هَذِهِ الطَّائِفَةُ. وَهُوَ نَوْعُ فِرَاسَةٍ، لَكِنَّهَا غَيْرُ فِرَاسَتِهِمْ"[xxxvii].

وقد بين ابن القيم بالتفصيل معنى الفراسة بعد نقله عن الصحابة والتابعين في تفسيرها، فقال: "وَمِنْ مَنَازِلِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] مَنْزِلَةُ الْفِرَاسَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر: 75] قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُتَفَرِّسِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: لِلنَّاظِرِينَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُعْتَبِرِينَ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لِلْمُتَفَكِّرِينَ"[xxxviii]. وهذه الأقوال جميعها معتبر لدى ابن القيم، يقول: "وَلَا تَنَافِي بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ النَّاظِرَ مَتَى نَظَرَ فِي آثَارِ دِيَارِ الْمُكَذِّبِينَ وَمَنَازِلِهِمْ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ: أَوْرَثَهُ فِرَاسَةً وَعِبْرَةً وَفِكْرَةً. وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ:

[xxxiii] ابن منظور، لسان العرب، ج 6، ص 47.

[xxxiv] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 333.

[xxxv] وهو كتاب منازل السائرين للهروي، والذي شرحه ابن القيم بكتاب سماه مدارج السالكين.

[xxxvi] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 459.

[xxxvii] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 459.

[xxxviii] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 452.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد: 30]. فَالْأَوَّلُ: فِرَاسَةُ النَّظَرِ وَالْعَيْنِ. وَالثَّانِي: فِرَاسَةُ الْأُذُنِ وَالسَّمْعِ"[xxxix].

وهذه الفراسة التي تكلم عنها ابن القيم لا تعطى لأي أحد، فقد يدعيها أصحاب الكذب والدجل، ومدعي خوارق العادات بالسحر والشعوذة وهي بعيدة عنهم، وقد جعلها ابن القيم في أصحاب العلم والإيمان، ومن تعلقت قلوبهم بالقرآن الكريم، واهتدوا بهداه، ومنهم الصحابة، فقال: "وَفِرَاسَةُ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- أَصْدَقُ الْفِرَاسَةِ. وَأَصْلُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْفِرَاسَةِ: مِنَ الْحَيَاةِ وَالنُّورِ اللَّذَيْنِ يَهَبُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَحْيَا الْقَلْبُ بِذَلِكَ وَيَسْتَنِيرُ، فَلَا تَكَادُ فِرَاسَتُهُ تُخْطِئُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: 122] كَانَ مَيْتًا بِالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ. وَجَعَلَ لَهُ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ نُورًا يَسْتَضِيءُ بِهِ فِي النَّاسِ عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ. وَيَمْشِي بِهِ فِي الظُّلَمِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[xl].

"فقد تبين أن الفراسة إما أنها تتعلق بالإيمان والبصيرة، وهذه لا سبيل لتعلمها، بل هي نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن، والنوع الآخر قواعد استقرائية يمكن تعلمها، ويشترك فيها المسلم والكافر، وفيها خطأ وصواب، ولا يُبنى عليها علم قطعي، بل هي أمارات ودلائل، ربما لا تبلغ درجة الظن الراجح في كثير من أحوالها، وأما ترويجها بين الناس، وأكل أموالهم بها: فهو نوع من الكهانة الجديدة التي كثرت صورها في هذه الأيام، وتحيل المنتفعون بها لأكل أموال الناس بالباطل".[xli]، ويقول ابن عثيمين –رحمه الله-: "وكثير من الناس يعطيهم الله سبحانه وتعالى علماً بالفراسة، يعلمون أحوال الإنسان بملامح وجهه، ونظراته، وكذلك بعض عباراته، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ٣٠﴾ [محمد: 30]"[xlii].

الإلهام.

الإلهام لغة: (الْإِلْهَامُ) مَا يُلْقَى فِي الرُّوعِ، يُقَالُ: أَلْهَمَهُ اللَّهُ. وَ (اسْتَلْهَمَ) اللَّهَ الصَّبْرَ[xliii]، وفي المعجم الوسيط: (الإلهام) إيقَاع شَيْء فِي الْقلب يطمئن لَهُ الصَّدْر يخص الله بِهِ بعض أصفيائه وَمَا يلقى فِي الْقلب من معَان وأفكار[xliv].

[xxxix] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 452.

[xl] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 455.

[xli] المنجد، محمد صالح، علم قراءة الوجوه، موقع انترنت https://islamqa.info، 9,00م، 2022/1/10.

[xlii] العثيمين، محمد، " تفسير سورة البقرة " (3 / 368).

[xliii] الرازي، محتار الصحاح، ص 286.

[xliv] المعجم الوسيط، ج2، ص 842.

الإلهام اصطلاحا: نوع من العلم الذي يفيض الله سبحانه وتعالى به على الإنسان، ويلقيه في قلبه، فيكشف به بعض الأسرار، وتتضح له بعض الحقائق.[xlv]
فالملاحظ من التعريف اللغوي والاصطلاحي، أن الإلهام كالحدس طريقٌ من طرقِ المعرفة عند جميع العلماء المحقِّقين، إلا ما شذ من الفرق التي حرفت هذا المفهوم.

أقسام الإلهام:
"الإلهام نوعان يختلف كل منهما باختلاف جنسه، فالإلهام في القلب يكون تارة من جنس القول، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، ولذلك فإن الترجيح والميل إلى الأظهر والأصوب وأحد الأمرين دون الآخر يندرج تحت النوع الثاني**"**[xlvi].

طريق اكتساب الإلهام:
"يأتي ابن تيمية شيخ ابن القيم ويضع الإلهام في مرتبتِه الحقيقية؛ حيث وضعه فيها الكتابُ والسنة، وينقد نقدًا شديدًا ابن عربي، ويبيّن انحرافَه عن طريق الإسلام، وإلحاده بقوله في وحدة الوجود، ويُخَطِّئ الغزالي في رأيه أن الإلهام الطريق الوحيد للمعرفة، ويبيّن أنه أحد طرق المعرفة، وهو نتيجة للتربية الإيمانية الملتزمة بالكتاب والسنة، لا أنه هدف كلي للإنسان، يحتاج إلى تربية صوفية معينة؛ مثل: الخلوة، والذِّكر المفرد، وغيره، وعَدَّ ما يحصل للمُرِيد الصوفي، إنْ هو إلا خيالاتٌ وأوهام لا أساس لها في المعرفة اليقينية، فالإلهام حق وليس باطلاً عند ابن تيمية، وهو علم صحيح لا يقبل النقض، يقول في كتابه "درء تعارض العقل والنقل": "وأما طريقة الإلهام، فالإلهام الذي يدعى في هذا الباب هو -عند أهله- علم ضروري لا يمكنهم دفعه عن أنفسهم، أو مستند إلى أدلة خفية لا تقبل النقض، فلا يمكن أن يكون باطلاً، ويدلِّل ابن تيمية على وجود الإلهام وواقعية حدوثه من الكتاب والسنة وسيرة الصحابة، ففي القرآن الكريم نجد أن الإلهام أحد دلالات الهدى، يقول: "وقد يراد بالهدى الإلهام، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين، الذين هداهم الله إلى طاعته، فإن الله -تعالى- أراد أن يتوب عليهم ويهديهم، فاهتدوا، ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا، كما قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 43]".[xlvii]
وبعد أن دلل ابن تيمية على وجود الإلهام، وأنه طريق من طرق المعرفة، يبيّن طريق اكتسابه، وأنه يمكن للمؤمن أن يكون من المُلهَمين بإذن الله، فيقول: "فكلما استعمل العبدُ عقلَه، وعمِل بعلمه، وأخلص في عمله، وصفا ضميرُه، وجال بفهمِه في بصيرة العقل، وذكاء النفس، وفطنة الروح، وذهن القلب، وقوَّى يقينَه، ونفى شكه، وضبَط حواسَّه بالآداب النبوية، وقام على خواطره بالمراقبة، وتحرَّى ترك الكذب في الأقوال والأفعال، وصار الصدقُ وطنَه، وذهب عنه الرِّياء

[xlv] نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، 196.

[xlvi] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 344.

[xlvii] مقال، الإلهام، موقع انترنت، https://www.alukah.net، 9,00م، 2022/1/12.

والعُجب، وأظهر الفقر والفاقة إلى معبودِه، وتبرأ من حولِه وقوَّته، ولزم الخدمة، وقام بحرمة الأدب وحفظ الحدود والاتباع، وهرب من الابتداع - زِيدَ في معرفته وقَوِيَت بصيرتُه، وكوشف بما غاب عن الأعيان، وصار من أهل الزيادة بحقيقة مادة الشكر الموجبة للمزيد"[xlviii].

والفرق الجوهري بين الإلهام والحدس، أن الحدس قائم على أساس من الاستشراف والتنبؤ والترقب، من غير اجهاد للعقل أو الحس بالقيام بعمليات إدراكية مقصودة، بعكس الإلهام الذي يتسم بالآنية التي تغمر الفرد بالفكرة فيجد نفسه متحدثا بها على سبيل البقين، أو متأكدا منها تلقائيا؛ فهذا يضفي على الإلهام سمة التدين، وعلى هذا فإن الإلهام يأخذ الطابع التديني، بعكس الحدس المشترك بين الطرفين.[xlix]

يقول الدغشي: "ولئن حصل هذا التداخل في الفكر التربوي الإسلامي، رغم امتلاك النصوص القرآنية والنبوية المساعدة على إدراك أوجه الاتفاق أو الافتراق بين الحدس والإلهام من باب أولى أن يقع الشيء ذاته وربما في صورة أكثر تداخل في الفكر التربوي الغربي، والإلهام وإن كان مدرجا ضمن المصادر المعرفة الدينية وطرائقها بالنسبة للتربية الغربية إلا أن من أررز باحثيها من استخدمه بمعنى البصيرة أو الحدس"[l]، **"**وبصورة عامة فإن الانعكاسات التربوية المباشرة للإلهام لا تخرج في مجملها عن انعكاسات الحدس، سواء في ذلك ركائز الفلسفة التربوية، أو عناصر المنهاج، أو المعلم والمتعلم، وذلك حيث إنهما مصادر ثانوية غير مكتسبة بالتربية النظامية"[li].

الإلهام في نظر ابن القيم:

جعل ابن القيم الإلهام منزلة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، فقال: "وَمِنْ مَنَازِلِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] مَنْزِلَةُ الْإِلْهَامِ، وَالْإِفْهَامِ، وَالْوَحْيِ، وَالتَّحْدِيثِ وَالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ"[lii].

وقد تكلم عنها ابن القيم بالتفصيل في منزلة الهداية فقال: "وَقَدْ جَعَلَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ الْإِلْهَامَ هُوَ مَقَامُ الْمُحَدَّثِينَ، قَالَ: وَهُوَ فَوْقَ مَقَامِ الْفِرَاسَةِ"[liii].

"وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ "الْفِرَاسَةِ" وَ "الْإِلْهَامِ" يَنْقَسِمُ إِلَى عَامٍّ وَخَاصٍّ، وَخَاصُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَوْقَ عَامِّ الْآخَرِ، وَعَامُّ كُلِّ وَاحِدٍ قَدْ يَقَعُ كَثِيرًا، وَخَاصُّهُ قَدْ يَقَعُ نَادِرًا، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ

[xlviii] ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل 518/8.

[xlix] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 347.

[l] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 348.

[li] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 359.

[lii] الجوزية، ابن قيم، مدراج السالكين، ج2، ص 470.

[liii] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 68.

الصَّحِيحَ أَنَّ الْفِرَاسَةَ قَدْ تَتَعَلَّقُ بِنَوْعِ كَسْبٍ وَتَحْصِيلٍ، وَأَمَّا الْإِلْهَامُ فَمَوْهِبَةٌ مُجَرَّدَةٌ، لَا تُنَالُ بِكَسْبٍ الْبَتَّةَ"[liv].

وقد قسم ابن القيم الإلهام إلى درجات، **"**قَالَ: وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الدَّرَجَةُ الْأُولَى: نَبَأٌ يَقَعُ وَحْيًا قَاطِعًا مَقْرُونًا بِسَمَاعٍ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ حُصُولُهُ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ [lv]. ومن الطبيعي أن لا يحصل ذلك إلا للأنبياء لدلالة القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك، وقال: الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إلْهَامٌ يَقَعُ عِيَانًا، وَعَلَامَةُ صِحَّتِهِ أَنَّهُ لَا يَخْرِقُ سِتْرًا، وَلَا يُجَاوِزُ حَدًّا، وَلَا يُخْطِئُ أَبَدًا"[lvi]، وهذا كالذي يكون في جعبته كرامة حقيقة ولكنه يخشى منها أن تدخل في قلبه الرياء، ككرامة أويس القرني التي أخبر عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: **"**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: إلْهَامٌ يَجْلُو عَيْنَ التَّحْقِيقِ صَرْفًا، وَيَنْطِقُ عَنْ عَيْنِ الْأَزَلِ مَحْضًا، وَالْإِلْهَامُ غَايَةٌ تَمْتَنِعُ الْإِشَارَةُ إلَيْهَا**"**، وَحَاصِلُ هَذَا الْإِلْهَامِ أَنَّهُ إلْهَامٌ تَرْتَفِعُ مَعَهُ الْوَسَائِطُ وَتَضْمَحِلُّ وَتُعْدَمُ، لَكِنْ فِي الشُّهُودِ لَا فِي الْوُجُودِ،[lvii]. وهذا النوع الأخير فهو من شبيه المستحيلات؛ إذ لا يستطيع البشر بالإلهام معرفة ما وراء الوجود، أو الغيبيات التي استأثر الله عز وجل بعلمها، ولهذا من الملاحظ أن ابن القيم برأ صاحب المنازل الهروي من هذا النوع، فقال فهو بريء منهم عقلا ودينا ومعرفة.

وذلك فقد جعل ابن تيمية النوع الأخير من قبيل الوسوسة وفرق بينه وبين الإلهام الصحيح، فقال: "وكل مَن خالف الرسول لا يخرج عن الظنّ وما تهوى الأنفس، فإن كان ممَّن يعتقد ما قاله وله فيه حجة ويستدل بها، كانت غايته الذي لا يغني عن الحق شيئًا، كاحتجاجهم بقياس فاسد، أو نقل كاذب، أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان، ويقول أيضًا: "وكذلك مَن اتَّبع ما يَرِدُ عليه من الخطاب، أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة، فإنما يتبع ظنًّا لا يُغنِي عن الحق شيئًا، فليس في المُحدَّثين المُلهَمين أفضل من عمر، وقد وافق عمرُ ربَّه في عدة أشياء، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول، وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خالف ما وقع له، فيرجع إلى السنة، وكان أبو بكر يبيّن له أشياء خفيت عليه، فيرجع إلى بيان الصِّدِّيق وإرشاده وتعليمه"[lviii].

وأما موقف القرآن الكريم من الإلهام: يقول الدغشي: "لعله بات من اليسير الآن استخلاص مشروعية هذا الموضوع من التصور الإسلامي، إن كان ثمة تشديد واضح على تقييده بما لا

[liv] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 69.

[lv] انظر مدراج السالكين، ابن القيم، ج1، ص69.

[lvi] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 72.

[lvii] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 73.

[lviii] ابن تيمية، الرسائل الكبرى، ج1، ص 51، 55-56.

يخالف المصادر الرئيسية الثلاثة [lix]، إذن هو مقيد بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية. ومن الآيات الدالة على ذلك: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ٢٩﴾ [الأنفال: 29]، قال السعدي: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة[lx]، وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: {فُرْقَانًا} أَيْ: فَصْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ وَقَدْ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ فَإِنَّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وُفِّقَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ -وَهُوَ مَحْوُهَا -وَغَفْرُهَا: سَتْرُهَا عَنِ النَّاسِ -سَبَبًا لِنَيْلِ ثَوَابِ اللَّهِ الْجَزِيلِ"[lxi].

الرؤيا الصادقة:

الرؤيا لغة: رأي: "(الرُّؤْيَةُ) بِالْعَيْنِ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَبِمَعْنَى الْعِلْمِ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَ (رَأَى) يَرَى (رَأْيًا) وَ (رُؤْيَةً) وَ (رَاءَةً) مِثْلُ رَاعَةٍ".[lxii]، في لسان العرب: "والرُّؤْيا: ما رأيته في منامك، وهي الرُّؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة: حلمتها وأرْأى الرجل إذا كثر رؤاه، بوزن رُعاه، وهي أحْلامه، جمع الرؤيا، ورأى في منامه رُؤيا، على فعلى بلا تنوين وجمع الرؤيا رؤى بالتنوين، مثل رعى"[lxiii].

الرؤيا اصطلاحا: "إذا عرفنا أن الرؤى في اللغة جمع رؤيا، وهي ما يراه الإنسان في منامه، فإننا لا نجد فرقًا بين المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي، وإنما اختلف الناس في بيان كيفية هذه الرؤى وحقيقتها اختلافًا عظيمًا {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]، وسبب اختلافهم في حقيقة الرؤيا، هو إعراضهم عن الكتاب والسنة، ومحاولة الوقوف على أمور لا تدرك بالعقول، قال المازري -رحمه الله-: «كثر كلام الناس في حقيقة الرؤيا، وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكرة، لما حاولوا الوقوف على حقائق لا تعلم بالعقل، ولا يقوم عليها البرهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت لذلك مقالاتهم.[lxiv] من خلال ذلك يتبين أن الرؤيا تختلف عن الحلم، على الرغم من أن الرؤيا والحلم أمور تحدث في المنام، إلا أن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان كما سنبين.

[lix] الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 351.

[lx] السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 319.

[lxi] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص 43.

[lxii] الرازي، مختار الصحاح، ص 116.

[lxiii] ابن منظور- لسان العرب، (14/ 297)،

[lxiv] العتيبي، سهل بن رفاع، الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، رسالة ماجستير، ص 47.

وتنقسم الرؤيا إلى رؤيا الحق الصالحة: وهي "إشعار للمؤمن بخبر سيقع ليغتنمه أو شرع سيقع ليحذره ويتجنبه ويأخذ أهميته واستعداده، فهي من هذا الوجه جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة؛ لأن فيها أخبارًا لهذا المؤمن بأمر غيبي لم يقع، وإن كان لا يمكن الجزم والقطع بهذه الرؤيا، إلا إذا وقعت؛ لأنه قد يخطئ الذي يعبرها وقد تكون على خلاف ما ظنه".[lxv]وتنقسم أيضا إلى حديث النفس: وهي: "ما يراه الإنسان في منامه مما يقع له في مجريات حياته، من الخواطر التي تجري من غير قصد، وهذا كثير في مرائي الناس، كمن يرى أنه يأكل ويشرب ونحو ذلك مما تحدث به نفسه في اليقظة، وعلامة هذا القسم أنه من الأمور المباحة، فلا يسُرُّ كحال الرؤية الصالحة ولا يحزن كالتي من الشيطان، ومثلها الهم والخواطر في اليقظة، وهذا القسم لا حكم له، ولا دلالة له".[lxvi] وتنقسم أيضا إلى الحلم، "وهو إفزاع من الشيطان، فإن الشيطان يصور للإنسان في منامه ما يفزعه وجاء وصفه في الحديث: «والرؤيا السوء من الشيطان».[lxvii]

الرؤيا الصادقة عند ابن القيم:

تعرف الرؤيا الصادقة في نظر ابن القيم بأنها جزء مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ"[lxviii]؛ ومما سبق في تقسيم الرؤيا، أكد ابن القيم هذا التقسيم بقوله: "وَالرُّؤْيَا مَبْدَأُ الْوَحْيِ، وَصِدْقُهَا بِحَسَبِ صِدْقِ الرَّائِي، وَأَصْدَقُ النَّاسِ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَهِيَ عِنْدَ اقْتِرَابِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ تُخْطِئُ، ويقول: وَالرُّؤْيَا كَالْكَشْفِ، مِنْهَا رَحِمَانِيٌّ، وَمِنْهَا نَفْسَانِيٌّ، وَمِنْهَا شَيْطَانِيٌّ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ، فَيَرَاهُ فِي الْمَنَامِ"[lxix].

والرؤيا الصادقة عند ابن القيم مصدر للمعرفة، إضافة أنها مصدرًا للتزكية بالنسبة للأنبياء عنده، يقول بهذا الشأن: "وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، فَإِنَّهَا مَعْصُومَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا أَقْدَمَ الْخَلِيلُ عَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالرُّؤْيَا"[lxx]. وأما غيرهم فتكون مصدرًا تابعا للوحي بعد العرض على القرآن والسنة، يقول "وَأَمَّا رُؤْيَا غَيْرِهِمْ فَتُعْرَضُ عَلَى الْوَحْيِ الصَّرِيحِ، فَإِنْ وَافَقَتْهُ وَإِلَّا لَمْ يُعْمَلْ بِهَا"[lxxi].

[lxv] العتيبي، سهل بن رفاع، الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، رسالة ماجستير، ص 227-233.

[lxvi] العتيبي، سهل بن رفاع، الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، رسالة ماجستير، ص 107.

[lxvii] العتيبي، سهل بن رفاع، الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، رسالة ماجستير، ص 107.

[lxviii] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 74.

[lxix] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 75-76.

[lxx] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 75.

[lxxi] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 75.

ولذلك جعل ابن القيم من وسائل التزكية ما يكون مؤثرًا في الرؤيا الصادقة من حيث صدقها المعرفي، يقول: "مَتَّى كَانَتْ كَذَلِكَ اسْتَحَالَ مُخَالَفَتُهَا لِلْوَحْيِ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُطَابِقَةً لَهُ، مُنَبِّهَةً عَلَيْهِ، أَوْ مُنَبِّهَةً عَلَى انْدِرَاجِ قَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي حُكْمِهِ، لَمْ يَعْرِفِ الرَّائِي انْدِرَاجَهَا فِيهِ، فَيَتَنَبَّهُ بِالرُّؤْيَا عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ تُصَدَّقَ رُؤْيَاهُ فَلْيَتَحَرَّ الصِّدْقَ وَأَكْلَ الْحَلَالِ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلْيَنَمْ عَلَى طِهَارَةٍ كَامِلَةٍ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَغْلِبَهُ عَيْنَاهُ، فَإِنَّ رُؤْيَاهُ لَا تَكَادُ تَكْذِبُ الْبَتَّةَ"[lxxii].

الخاتمة:

أولاً: النتائج: توصل الباحث الي عدة نتائج اهمها:

1. توصل الباحث الى أن المصادر الأصيلة للتزكية عند ابن قيم الجوزية هي القرآن الكريم والسنة النبوية، والتابعة لها هي الاجماع والقياس، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، والعرف.
2. المعيارية في انتقاء مصادر التزكية التبعية هي القرآن الكريم والسنة النبوية.
3. التراث الإسلامي مليء بمنهج التزكية الذي يحتاج إلى الجهد لاستخراجه وتنقيحه وتهذيبه.
4. من خلال البحث في مصادر التزكية عند ابن قيم الجوزية منها ما يكون موافق للكتاب والسنة ومنها ما هو عكس ذلك والعكس مرفوض.
5. المنهج القرآني من أقوى مناهج التزكية للمسلم ثم سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم علماء السلف الذي أخذوا بالمنهجين نظريًّا وتطبيقياً.

التوصيات: يوصي الباحث بالآتي:

1. إجراء المزيد من الدراسات حول مراجع التزكية الصحيحة؛ ليستفيد طلبة العلم منها.
2. غربلة كتب التراث من الشوائب التي طالت منهج التزكية.
3. الاستفادة من وسائل الإعلام في نشر مراجع التزكية التي على منهج الكتاب والسنة وما وافقهما.
4. كتابة رسالة علمية جامعة لمصادر التزكية في التربية الإسلامية.

[lxxii] ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 76.

المصادر

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، د، ط.
- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
- ابن تيمية، الرسائل الكبرى، دار العطاء – الرياض، الطبعة: الأولى 1422هـ -2001م.
- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1411 هـ -1991م.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
- البخاري، صحيح الجامع، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
- الجوزية، ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.
- الجوزية، ابن القيم، بدائع الفوائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1425 هـ.
- الجوزية، ابن قيم، التبيان في أقسام القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د، ط.
- الجوزية، ابن قيم، الروح، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، 1395 – 1975.
- الجوزية، ابن قيم، تفسير القران العظيم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، د، ط.
- الجوزية، ابن قيم، تهذيب سنن أبي داوود، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الـأولى.
- الجوزية، ابن قيم، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2001م.
- الجوزية، ابن قيم، مدارج السالكين، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م.
- الجوزية، ابن قيم، مفتاح دار السعادة، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
- خطاطبة، عدنان، أصول التربية الإسلامية وتطبيقاتها، أصول التربية الإسلامية وتطبيقاتها، الطبعة الأولى، دار النفائس.
- خطاطبة، عدنان، النظرية التربوية الإسلامية، النظرية التربوية الإسلامية، دار العلم والإيمان، الطبعة الأولى.
- خلف سلامة، محمد، لسان المحدثين، د، ن، د، ط.
- الدغشي، أحمد، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الرازي، محتار الصحاح، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة.
- الراغب، الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى.
- السبكي، تاج الدين، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى.

- السيد، جمال، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د، ط.
- العتيبي، سهل بن رفاع، الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، رسالة ماجستير، الناشر: دار كنوز اشبيليا.
- العثيمين، محمد، " تفسير سورة البقرة منشورات منتديات كل السلفيين، الطبعة: الأولى.
- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة.
- الكردي، راجح، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى.
- المنجد، محمد صالح، علم قراءة الوجوه، موقع انترنت .https://islamqa.info
- قاسم، محمد سنحان، المنهج النبوي في علاج الأقوال المذمومة، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة صنعاء.
- نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، د، ط.
- النووي، شرح النووي على مسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية
- هزايمة، موسى محمود، مصادر المعرفة التي اعتمدتها المدارس الفكرية وانعكاسها على أصول التربية في المجتمع الإنسان، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك.